مكونات الشعر

يقوم الشعر على دعائم أو مكونات تشكل بنية القصيدة ، ينظم في ضوئها الشعراء ، ويقيمون بناء شعرهم ، وهي كما تناولها النقاد وعلماء البلاغة من قبل : -

- الفكر.
- الوجدان .
- الصور التعبيرية .

و إذا كانت اللغة هي الوسيلة التي يعبر بها الشاعر عما نفسه " فإن الناس يختلفون فيما بينهم في التعبير عما في أنفسهم من المعاني ، بل إن الناس يختلفون في التعبير عن المعنى الواحد . . يتفقون في التعبير عن المعاني العلمية أو الرياضية مثل : أ = ب ، ب = ج ولكن عندما يراد التعبير الأدبي وخصوصًا عما تكنه العواطف لا يمكن أن يتفقوا ، وأي اختلاف في التعبير . . ينتج اختلافًا في التأثير – فلو أنك غيرت ولو تغييرًا طفيفًا كلمة في بيت من الشعر مكان كلمة شعرت توًا باختلاف الأثر الذي يوحيه . وهذا هو السر في أن الشعر لا يمكن ترجمته ترجمة دقيقة[1] والشعر سجل يضم أحداث العصر والشاعر هو المرآة في كل زمن ، يرصد بحسه وفكره ويسجل الواقع بعد أن يصهره في بوتقة صياغته ، لذا قيل : " الشعر ديوان العرب " ، كما كان شعر الجاهلية إرهاصا للنبوة .

" وقد روي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما سمع قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قال : إن هذا من كلام النبوة " [2]

١- النقد الأدبي ، أحمد أمين ص ٧٣ ط دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان .
٢- نفسه ص ٨٦ .

وليس بخاف علينا أننا عرفنا أحداث العصر الجاهلي والعصر الإسلامي حتى عصر التدوين من خلال ما ورد إلينا وما سمعناه من شعر الشعراء .

وهي منظومة متكاملة تبرز فيها فكرة الشاعر وعاطفته من خلال ما يستخدم من أدوات ، ونعني بها : الألفاظ والأساليب والصور والموسيقا ؛ وهنا تظهر الفروق الفردية ، وتبرز مزية الشاعر بمقدار ما يجيد ويتقن استخدام هذه الأدوات والتأليف بينها ، يدعم هذا الإتقان أمور كثيرة في مقدمتها موهبة الشاعر ، وهي منحة من الله لا تؤتي للناس جميعًا يليها ثقافة الشاعر ومقدار ما يحفظ عن شعر وما يختزن في ذاكرته من مواقف وخبرات حياتية ،أو ما يكتسبه من قراءة وإطلاع ، وقد قيل :

اقـــــرأ تقـــــل إن الكـــــلا م مـــــن الكـــــلام يعـــــادُ

وقد روي أن أبا نواس قال لوالبة بن الحباب ذات مرة : علمني الشعر ، فقال له اصحبني أخرجك .. . فصحبة زمنا يحضر مجالسه ويستمع لشعره ، فقال له والبة اذهب واحفظ ألف أرجوزة ، فإن حفظتها عُد إليّ ، فغاب أبو نواس حينا من الزمن حفظ خلاله ما طلب والبة ، ثم عاد ليخبره أنه حفظ ما أمر به فقال له والبة : عليك بنسيان ما حفظت ، ثم غاب أبو نواس فترة وعاد إليه قائلاً : قد نسيت ما حفظتْ ، فقال له والبة : هب أني مت واكتب قصيدة في رثائي ، فنظم قصيدة طيبة في رثاء والبة فلما سمعها تهلل وقال له : أحسنت يا أبا نواس ، فقال له أبو نواس : مت إذن يا سيدي ولك عندي خير منها .

هذه الرواية – و إن كان فيها بعض المبالغة – تطلعنا على أمرين اثنين :

أولهما : أن يكون لدى الشاعر مخزون كبير من مرويات الشعر والأدب وأن تكون له الخبرة الكافية ، وهي تكتسب عادة مما يمر به من تجارب ومواقف . ثاني الأمرين : التجربة أو المؤثر ، وهو ضروري لإحداث شرارة البدء في العمل الأدبي . . إنه مثل مفتاح السيارة ، وظيفته فقط في إدارتها حين يدار يحدث التفاعل فيتحرك " الموتور " وتدور العجلات وتنطلق السيارة إلى غايتها التي يريدها صاحبها . لذلك قال أبو نواس لوالبة : مت ولك عندي خبر منها ، لأنه نظم قصيدة الرثاء دون مؤثر أو تجربة .

وكلما كان المؤثر قويًا كان التعبير عنها أسرع وأقوى وكلما بلغ التأثير مدى قويًا واسعًا أصبح الشاعر لا يقوى على الاحتمال حتى ينظم قصيدته كالأنثى حين يأتيها المخاض هذا المؤثر هو الذي دفع الشاعر جرير إلى أن يجرى بسرعة كالمجنون حتى دهش الناس حين رأوه يجرى في السوق لا يلوى على شيء ينحي هذا يمينا ، وذاك يسارًا ليفسح لنفسه طريقًا للعودة إلى منزله ، حتى وصل فوجد الباب مغلقًا وظل يدق عليه غاضبا وهو يصيح في زوجته : افتحي يا لكاع ، فلما فتحت الباب دخل مسرعا ونحاها جانبًا عن طريقه ، وأسرع إلى الدواة والورق ، وظل يكتب ويكتب حتى اكتملت الأبيات التي كانت تعتمل في صدره ، ثم ترك القلم والورق واستلقى على ظهره في هدوء واسترخاء قائلاً : الحمد لله لقد قتلته !!

ولنا أن نتساءل : قتل ماذا ؟ لا شيء غير المؤثر القوي الذي ظل يلح عليه حتى أفقده صوابه وجعله يجري في السوق كالمجنون ، ولم يسترح ، ولم يهدأ له بال حتى أتى عليه و أفرغ ما يدور في نفسه على تلك الصفحات .

عجيب أمر هذا المؤثر، هل له تلك القوة الفائقة ؟ نعم إنه هو نفسه الذي جعل أمير الشعراء شوقي يستقل عربة " حنطور" ويطوف بها شوارع القاهرة ، وكلما سأله السائق إلى أي مكان تريد الذهاب يا سيدي ؟ يقول له انطلق ويظل السائق يدور ساعات وساعات وأمير الشعراء يكتب ويكتب حتى كانت رائعته المشهورة (كبريات الحوادث في وادي النيل) والتي مطلعها :

من أي عهد في القرى تتـــدفق ؟ وبأي كف في المدائن تغـــدق؟[1]

وليس من الضروري التعبير عن التجربة في حينها ، فقد تختزن في ذاكرة الشاعر حتى تطيب ، ويحين قطافها فتظهر يانعة على الورق .

وإذا أُوتي الشاعر القدرة على التعبير، وكان صَناعًا كُتب للتجربة النجاح والخلود لأن النظم الجيد هو الذي يشكل البناء الجيد للقصيدة " فالنظم هو التعبير الخارجي لحالة داخلية ، ومتى صدق التعبير الخارجي وأدى في أمانة شرح الحالة الداخلية كان نظمًا جيدًا ، وإذا قلنا جمال اللغة أو الأسلوب فلابد أن نشرك في ذلك المعاني والعواطف ومطابقتها لهما ، لأن اللغة لا يمكن الإعجاب بجمالها مجردة عن ذلك ، وتعد اللغة جميلة بالغة حد الكمال بمقدار تعبيرها عن المعاني والعواطف"[2] إن الشاعر يستعين على إبراز عواطفه و أفكاره بما يختار من ألفاظ دقيقة ، وبما يصوغ من معان وأساليب ، وما تضم من تشبيهات واستعارات وكنايات وما تحمل من ألوان البديع المختلفة .

١- راجع : شوقي شاعر العصر الحديث . لشوقي ضيف .
٢- النقد الأدبي ، أحمد أمين ص ٧٥

" وكان حافظ إبراهيم رحمه الله ذواقًا " . بمعنى " أنه كان يردد الكلمات ويغنيها أحيانًا ليختبر وقع الكلمة في السمع ، ولينظر هل الكلمة شعرية تناسب الموضع الذي قيلت فيه ، أولا تناسبه " [1]

وتحفل كتب النقد بنماذج من الشعر فيها ما يخل ببناء القصيدة ، ومن ذلك ما أبداه سيف الدولة الحمداني في قول أبي الطيب المتنبي :

وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فقد قال له إن المنطق يقضي أن يكون نظم البيتين هكذا :

وقفتَ وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

وتعلل المتنبي بأن صناعة الشعر تقتضي هذا .

" ومن ذلك قول شوقي في قصيدته المشهورة :

مُضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده

فهو في هذا البيت قد آماته وترحم عليه ، وكان المنطق أن تكون وفاته والترحم آخر ما يقال . ولكنه قال بعد ذلك :

١- نفسه ص ٨١ .

يـــستهوي الـــورق تأوهـــه ويـــذيب الـــصخر تنهـــده

وينـــاجي الـــنجم ويتبعـــه ويقـــيم الليـــل ويقعـــده

وهذه من صفات الحي لا الميت ، فكيف لمن مات وترحم عليه عوده أن يفعل ذلك ، فهذا مثل من أمثلة عدم خضوع الشعر للمنطق " [1]

إن الناقد حين يصدر حكمًا بجودة قصيدة ما ، فإن هذا الحكم ينسحب على كل ما يتعلق بها . . ألفاظها – صورها – أساليبها – فكرتها حتى براعة الشاعر ومهارته في إحداث معماريتها ، وصولاً إلى ذاته وماله من موهبة وقدرة التأثير في غيره ، ولو سألت الناقد أو المتلقي عن طبيعة هذا الإعجاب بما قرأ لن تجد ردًا شافيًا لأن الإعجاب بالجمال شعور لا يمكن تبين طبيعته ، تمامًا كالتيار الكهربي ترى أثره ولكن لا تستطيع الوصول إلى كنهه .

ويبين الشاعر نزار قباني وظيفة الشعر ودور الشاعر بأن " الشعر يحيط بالوجود كله ، وينطلق في كل الاتجاهات ، فترسم ريشته المليح والقبيح ، وتتناول المترف والمبتذل ، والرفيع والوضيع ، ويخطىء الذين يظنون أنه خط صاعد دائمًا ، لأن الدعوة إلى الفضيلة ليست مهمة الفن بل مهمة الأديان وعلم الأخلاق . و أنا أؤمن بجمال القبح ولذة الألم ، وطهارة الإثم ، فهي كلها أشياء صحيحة في نظر الفنان " [2] واعتراف نزار قباني هذا يجرنا إلى قضية الالتزام : هل الفن للفن ؟ أم الفن للمجتمع ؟

١- النقد الأدبي ، أحمد أمين ص ٨٢ .
٢- نفسه .

وليس هذا موضوع دراستنا ، لكني أختلف مع نزار في رأيه أن الفضيلة ليست مهمة الفن بل مهمة الأديان وعلم الأخلاق ، لأن للفن رسالة – في رأيي – هي خدمة المجتمع وتهذيب النفس والسمو بها . و إذا كان هذا تعريف نزار للشعر فقد عرفه أمير الشعراء أحمد شوقي بأنه : فكر و أسلوب . وخيال موهوب "[1] ولسنا بصدد الخوض في أوجه الخلاف بين هذين المفهومين للشعر أو أية مفاهيم أخرى للشعر ، إنما نحن بصدد معمارية القصيدة ومكونات الشعر عبر الصفحات التالية .

١- أسواق الذهب ، أحمد شوقي ص ١١٩ مطبعة الهلال ١٩٣٢ .